آراء حـــرة

ثلاثون عاما على كرسي مار مرقس

التقاليد القبطية في انتخاب بابا الإسكندرية

د. سعد ميخائيل سعد . لوس أنجلوس

أن الكرامة العظيمة والمسئوليات الخطيرة التي يحملها بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية تنبع من أنه خليفة القديس مرقس الرسول الإنجيلي ، وأنه الاب الروحي لأكبر الشعوب المسيحية في الشرق الاوسط ، وأنه رئيس أساقفة الكنيسة القبطية التي أصبحت عالمية بامتدادها إلى أقاصي المسكونة ، وأنه بطريرك إحدى الكنائس الرسولية الأربعة التي كان لها دورا تأسيسيا في قيام المسيحية العالمية.

لهذا كانت لتقاليد انتخاب بابا الإسكندرية أهمية قصوى . وكما نتوقع في كنيسة حية وعريقة ، فالتقاليد فيها تنضج وتتطور وتتفرع، ثم أحيانا تعود فتتشابك وتتكامل أو تنصقل في صياغات متجددة . وفى هذه كلها تواجه امتحان التاريخ بكل ظروفه.

وكما سنوضح فلائحة ترشيح وانتخاب البطريرك الصادرة في ٣ نوفمبر ١٩٥٧ تجمع بين عدة تقاليد قديمة بأسلوب متكامل جدير بالتقدير. نعم يحق لنا الإعجاب بها خصوصا لأنها أثمرت انتخاب اثنين من أعظم من جلسوا على كرسي مار مرقس هما مثلث الرحمات البابا كيرلس السادس ثم قداسة البابا شنودة الثالث الذي نحتفل بكل قلوبنا بعيد جلوسه الثلاثين . أطال الله حياته .

البحث العلمي عن التقليد الكنسي

لتتبع مسار تقاليد وطرق انتخاب باباوات الإسكندرية الـ ١١٧راجعنا المصادر التاريخية المتاحة ثم قمنا بتصنيف تلك الطرق وتقسيمها إلى تسعة فئات حسب الجدول المبين . وفى حدود الزمن والمراجع المتاحة لم نعثر على أسلوب مؤكد لانتخاب ٢٧ بطريرك . فكثيرا ما تجاهلت المراجع الأصلية طريقة انتخاب البطريرك .

وقد وجدنا أن هناك ثلاثة طرق ، استخدم كل منها عشرة مرات أو أكثر هي: الانتخاب بالإجماع العام (٣٥ مرة) والانتخاب بواسطة قسوس الإسكندرية (١٦مرة) وإلقاء قرعة بين افضل المرشحين (١٠مرات) . وهناك ست طرق أخرى أتبع كل منها بين ثلاثة وسبعة مرات . وهذا التكرار المحدود يعبر عن أنها لم تترسخ كتقليد كنسي ولكن على أحسن الفروض، كانت حلا عمليا لظروف استثنائية ، وعلى أسوأ الفروض ، كانت تعبيرا عن انحراف أو تيهان أو انقسام .

ولقد وجدنا أيضا أن هناك بعض الباباوات انتخبوا بأسلوب يجمع بين طريقتين . فوضعناها في التصنيف تحت الطريقة التي كانت أكثر حسما لنتيجة الانتخاب .

وهذه هي التسعة طرق مرتبة حسب عدد مرات تكرارها في التاريخ.

١- الانتخاب بالإجماع العام

بين التسعين بطريركا الذين عرفنا طرق انتخابهم وجدنا ٣٥ نالوا هذا التكليف بإجماع عام . في هذه الحالة عادة ما ذكرت المصادر التاريخية عبارة عامة هي «أجمع الأساقفة والقسوس والاراخنة على اختيار فلان». وفي معظم الأحوال لا نجد شرحا للتفاصيل ولكن من المتوقع أنها كانت مختلفة من حالة إلى أخرى .

وربما كان انتخاب البابا يؤنس التاسع عشر (١٩٢٨-١٩٤٢) هو أول مرة يتم فيها انتخاب البطريرك بأسلوب عصري يشمل الاقتراع السري في يوم محدد (٧ ديسمبر ١٩٢٨) وأن تقوم بالانتخاب جماعة محددة من الأساقفة ورؤساء الأديرة وأعضاء ونواب المجلس الملى العام ومجموعة منتقاة من أعيان الأقباط . وكان من تفاصيل النظام (الموثق بالأمر الملكي رقم ٨٤ لعام ١٩٢٨) أن يعاد الانتخاب بين الاثنين الحاصلين على أكثر الأصوات إذا لم يحصل أي مرشح على الأغلبية المطلقة في الجولة الأولى . ثم إذا تساوت الأصوات بين أثنين أو أكثر تعمل القرعة بينهم .

ثم صدرت لائحة مشابهة توثقت بالأمر الملكي رقم ٧٣ لعام ١٩٤٢، أنتخب على أساسها البابا مكاريوس الثالث (١٩٤٤-١٩٤٥) والبابا يوساب الثاني (١٩٦٤-١٩٥٦) .

٢- الانتخاب بقسوس الإسكندرية

قام قسوس الإسكندرية بالدور الحاسم في انتخاب مالا يقل عن ١٦ بطريرك كان معظمهم في القرون الأولى . فحتى البابا ديمتريوس الأول (١٨٩-٢٣١) كان أسقف الإسكندرية هو الأسقف الوحيد في البلاد المصرية وكان يرأس مجلسا من اثنى عشر قسيسا . وعند نياحته ، كان الاثنى عشر ينتخبون واحدا من بينهم للارتقاء لهذه المسئولية .

وبالرغم من أن البابا بطرس الأول تمت التوصية بتعيينه من البابا السابق له ، إلا أن انتخابه تم بطريقة حرة بواسطة قسوس الإسكندرية .

٣- إلقاء القرعة بين أفضل المرشحين

عندما ألقى آباؤنا الرسل قرعتهم بين أفضل المرشحين لكرامة الرسول الثاني عشر (أع١:٢١) كانوا مسوقين من الروح القدس وقد نالوا قبلها من الرب يسوع نفسه سلطان الحل والربط . ولكن ربما لغياب الفروق الظاهرة بين المرشحين يوسف ومتياس ، أو ربما لعدم اتفاق المئة والعشرين المجتمعين على أي المرشحين أنسب في الحاضر «فما بالنا في المستقبل» صلوا جميعا قائلين : أيها الرب العارف قلوب الجميع عين أنت من هذين الاثنين أيا اخترته .

بهذا وضع الرسل سابقة لاهوتية تم على مثالها انتخاب ما لا يقل عن عشرة من بطاركة الأقباط . وجدير بالملاحظة أن أولهم (حسب تاريخ الكنيسة ليوسابيوس) كان البابا الثالث أبيليوس (٨٥-٩٨م) الذي أعقب البابا انيانوس الذي كرسه مارمرقس . أي أنها كانت الممارسة الأولى لكنيسة الإسكندرية في انتخاب أسقفها . وربما كان هذا التقليد من توجيهات مارمرقس الذي استشهد قبلها بمجرد ١٧ سنة . كما أنه لم يكن مضى على قرعة الرسل إلا نحو خمسين سنة ، أي أن ممارسات التقاليد الرسولية كانت في أوج براءتها . وهناك تقليد آخر يقول أن القديس لوقا الإنجيلي هو الذي قام برسامة ابيليوس «ميليوس» أسقفا . أذن فتثبيت الرسول لوقا لتقليد القرعة بين أفضل المرشحين يعطى دليلا إضافيا لأصولية التقليد وقانونيته في انتخاب الأساقفة .

وبناء على هذا فهناك احتمال كبير أن بعضا من البابوات ٤-١١ قد جاء إلى الكرسي عن طريق القرعة بعد عملية انتخاب مبدئي قام به قسوس الإسكندرية . ولكننا وضعناه في الجدول تحت بند «قسوس الإسكندرية» لأن هذا هو الوصف العمومي الذي يعطيه المؤرخون للمجموعة ككل .

ثم يأتى انتخاب الأنبا يؤنس البابا ٤٨ (٧٧٥-٧٩٩) فنجد أن هيئة الناخبين قد لجأت إلى القرعة بعد إحباط طويل لأن مؤيدوا كل من المرشحين الثلاثة لم يريدوا التراجع . أما في انتخاب الأنبا ميخائيل البابا ٧١ (١١٤٥-١١٤٦) فقد ألقيت القرعة لغياب الفروق بين المرشحين . وربما أول مرة يذكر المؤرخون صراحة أن الأسماء النهائية وضعت على المذبح أثناء القداس ثم ألقيت القرعة هي في انتخاب البابوات ١٠٢-١٠٥ (١٦٦٠-١٧٤٥) .

فإذا أضفنا أنه بين الـ ٢٧ بطريرك الذين لم نعرف طريقة انتخابهم هناك احتمال كبير أن بعضهم أختير بالقرعة، نستطيع الاستنتاج أن هناك احتمال عال أن ما بين خمسة إلى ثمانية بطاركة (بالإضافة إلى العشرة المؤكدين) قد جاءوا بالقرعة .

وسنعود إلى موضوع القرعة قبل نهاية المقال .

٤- التعيين من البابا السابق

هناك ٧ بطاركة تعينوا من البطريرك السابق لهم . وهناك ٧ حالات أخرى كانت لتوصية البابا السابق درجة ما من التأثير . وفي معظم تلك الحالات كان البابا يعلن رغبته «أحيانا على سرير الموت» سواء تلقائيا أو ردا على سؤال عن أفضل المرشحين في نظره . وأحيانا كانت رغبة البابا المنتقل تمنع البحث عن مرشحين آخرين للمقارنة والتفضيل وأحيانا كانت فقط تضع شخص ما على رأس القائمة .

ويمكننا اعتبار تعيين مارمرقس الرسول البابا الأول لتلميذه انيانوس البابا الثاني (٦٨-٨٥) ضمن هذه الفئة. أما الأنبا بطرس البابا ٢١ (٣٧٣-٣٨٠) فقد جاء بتوصية من سلفه البابا اثناسيوس الرسولي . ولاشك كانت لتوصية أثناسيوس فاعلية الأمر الملزم لما له من مكانة في قلوب الاكليروس والشعب .

٥- تأثير قوى من الحكام

هناك ستة حالات كان لتدخل الحكام نفوذا مؤكدا على نتيجة الانتخاب. وأبتدأ هذا النوع من التأثير بعد تنصير الإمبراطورية الرومانية وامتد إلى الحكم العربي .

فالأنبا ديسقوروس البابا ٣١ (٥١٥-٥١٧) فرضته الإمبراطورية أولا ليقوم بأعمال البابا ثم حدث قبوله شعبيا ورسامته كهنوتيا بعد ذلك .

أما حالة الأنبا كيرلس الثالث ، البابا ٧٥ (١٢٣٥-١٢٤٣) المعروف بابن لقلق، فكانت أسوأ سيناريو . فقد كان هناك دائما اعتراض من الأساقفة والقسوس والأراخنة على ترشيحه ولكنه لجأ للحيل السياسية بما فيها من هدايا لبلاط الحاكم مستغلا صداقته لقبطي آخر هو أبن الميقات رئيس كتبة السلطان لكي يمنع نجاح أي مرشح آخر واستغرقت هذه المناورات ١٩ سنة والكرسي خال حتى مات معظم الأساقفة وبقي أثنين فقط قرروا رسامته قبل أن يموت أحدهما وينقطع التسلسل الرسولي .

٦- الانتخاب بنفوذ الاراخنة منفردين

هناك خمسة حالات يذكر فيها التاريخ أن أراخنة الكنيسة قاموا منفردين بانتخاب البطريرك . إذا كان هذا الوصف دقيقا فلا عجب أنهم في معظم الأحوال انتخبوا علمانيا أو شماسا وليس راهبا أو كاهنا .

٧- الانتخاب بنفوذ الأساقفة منفردين

هناك أربعة حالات تذكر فيها المصادر أن الأساقفة انتخبوا البطريرك ولا تذكر اشتراك القسوس أو الأراخنة .

وإذا كان هذا الوصف دقيقا وليس إهمالا من المصادر التاريخية فقد حدثت في عدد محدود يدل على استثناء من القاعدة القبطية . وعلى العكس أصبح هذا هو التقليد السائد في الكنيسة الكاثوليكية حيث يجتمع مجلس الكرادلة في عزله عن باقي الكهنوت والشعب لاختيار البابا .

٨- التعيين بأمر ألهى أو حلم

تعتبر الكنيسة القبطية مارمرقس الرسول كبطريركها الأول وهذا هو النموذج المثالي للتعين بأمر إلهي . وهناك ثلاث حالات أخرى كانت فيها الرؤى أو الأحلام العامل الأساسي في اختيار البطريرك . والمثال المشهور في ذلك هو اختيار الأنبا ديمتريوس البابا الثاني عشر حيث رأى سلفه البابا يوليان ملاكا في حلم يخبره بأن الرجل الذي يحضر له عناقيد عنب في الصباح التالي يكون هو البابا الذي يخلفه . وإذ وجد ديمتريوس الكرام عنبا ينضج في غير موسمه أحضره للبابا يوليان وهو في فراش الموت وسرعان ما أصبح ديمتريوس بطريركا .

أما في انتخاب الأنبا ميخائيل البابا ٤٦ (٧٤٤-٧٦٧) ، فقد كان الأساقفة والقسوس والاراخنة مجتمعين في الإسكندرية في مشاورات لم تسفر عن اتفاق على أي مرشح ، وعندما أخبرهم أحد الشمامسة عن مرشح جديد رأى حلما بشأنه ، استراح الجميع للفكرة وتم تنفيذها !

٩- المصادفة والظروف

في حالة الباباوات ٤٢ و٦٣ بعدما تداولت الجماعة الانتخابية في شأن المرشح الرئيسي واستمعوا إليه ، وجدوه غير مناسب . ولكن في ذلك الجو ظهر أسم تلميذ المرشح وانتخب التلميذ بدلا من المعلم .

أما في انتخاب الأنبا زكريا البابا ٦٤ (١٠٠٤-١٠٣٢) فلم يكن ضمن المرشحين بل بالصدفة كان كاهنا يخدم باتضاع الهيئة الانتخابية وعندما كان نازلا إلى غرفة المداولات حاملا جرة تعثر على السلالم ووقع ولكن بأعجوبة لم تنكسر الجرة . فجذب الحادث انتباه الأساقفة وقرروا فورا انتخابه للبطريركية .

عرض لائحة ١٩٥٧

بعد أن عرضنا هذه التسعة طرق التي أنتخب بها البابوات ، نجد أن لائحة ١٩٥٧ قد صاغها المجمع المقدس برئاسة القديس الأنبا أثناسيوس قائمقام البطريرك وقتها لكي تجمع بين افضل تلك الطرق وتستبعد سلبيات أو مآسي الطرق الانفرادية أو الحزبية . وملخص اللائحة بالنسبة لإجراءات الترشيح والانتخاب هي : ينظر في أمر المرشح إذا وافق على ترشيحه ستة أساقفة أو ١٢ عضو حالي أو سابق في المجلس الملى العام (مادة ٤). تختار لجنة الترشيحات ما بين خمسة إلى سبعة أسماء من بين المرشحين بعد فحص مؤهلاتهم والاعتراضات المقدمة ضد أي منهم (مادة ٦) . تتشكل الهيئة الانتخابية من جماعة مختارة من كهنة الإسكندرية والقاهرة، وأعضاء المجلس الملى العام والمجالس الفرعية ، والوزراء وأعضاء البرلمان الأقباط الحاليون والسابقون ، وممثلون عن القضاء والصحافة وغيرها ومجموعة مماثلة من أثيوبيا (مادة ٩) . بعد الانتخاب توضع ثلاثة أسماء الذين حصلوا على أعلى الأصوات داخل مظروف على المذبح وبعد القداس يسحب طفل ورقة من الثلاثة (مادة ١٨) .

تعليقات إضافية على مبدأ القرعة

تكلمنا في النقطة الثالثة على الأساس الإنجيلي والقدوة الرسولية والشهادة التاريخية لمبدأ القرعة . ولكن بالرغم من هذا فعندما صدرت لائحة ١٩٥٧ قامت ضدها اعتراضات قوية من المجالس الملية وحركة مدارس الأحد مما تسبب في إطالة خلو الكرسي المرقسى من نوفمبر ١٩٥٦ إلى مايو ١٩٥٩ . وكانت أهم نقط الاعتراض هي شروط المرشح وهيئة الناخبين والقرعة الهيكلية .

ولكن بتحليل التاريخ نجد أنه بدون تدخل الله في القرعة الهيكلية ما كانت الكنيسة تباركت ببطريركية البابا كيرلس السادس حيث أن ترتيبه كان الثالث في الانتخابات ، ولا بالنهضة الإصلاحية التي قادها البابا شنودة الثالث حيث أن ترتيبه كان الثاني في الانتخابات . وليتخيل القارئ الكنيسة القبطية بل مصر والعالم بدون هذين العملاقين الذين اختارتهما مراحم الله.

وللقرعة ميزة إضافية عند تقارب الأصوات المعطاة للمرشحين وإصرار كل فريق على أفضلية مرشحهم . ففي معظم تلك الأحوال يلجأ البعض إلى أساليب حضارية مثل القضاء (كما حدث في تقارب أصوات انتخابات الرئاسة الأمريكية الأخيرة) أو أساليب سلبية ضارة (منها التشهير والتشكيك في الإجراءات) مما يؤدي أما إلى عدم الرضاء الكامل عن الناجح في الانتخاب (حتى لو تمت رسامته) أو إلى تسويف الاتفاق وترك الكرسي خاليا لسنوات طويلة . والتاريخ ملئ بالقصص التي تؤكد كل هذه المعاني.

وأن كان كثير من النظم السياسية والاجتماعية قد أخذت بمبدأ القرعة عند تساوى الأصوات فما بالنا بكنيسة تؤمن بقوة عمل الروح القدس في أسرارها وحياتها اليومية ، وتؤمن باستجابة الله لصلوات الجماعة التي تلجأ إليه للاختيار النهائي كما فعل الرسل .

ثم تأتى ميزة أخرى لمبدأ القرعة وهى التقليل من تأثير الحزبية على نتيجة الانتخابات ، وماذا تفعل الكنيسة لو كان صوت واحد هو الفاصل النهائي ، ويأتي هذا الصوت بطريقة عشوائية أو حزبية ! ولو كانت نسبة ضئيلة في الهيئة الانتخابية هي الفاصلة في الانتخابات ألن يكون التنافس على عضويتها سبب مرارة وانقسام يهدد سلام الكنيسة ! ولكن تأتى القرعة بين أعلى ثلاثة مرشحين لكي تمنع بطريقة محايدة هذا النوع من المشاكل. كما أنها تقلل جدا من مرارة طرف أو مدرسة كنسية في قبول نتيجة الانتخاب إذا لم تكن لصالح مرشحها . وكما يقول سفر الأمثال (١٨:١٨) : القرعة تبطل الخصومات وتفصل بين الأقوياء .

ولماذا ننسى القضية التي رفعتها مجموعة من المحامين الأقباط عام ١٩٧١ لدى المحاكم المصرية للاعتراض على خط سير الترشيح والانتخاب لكرسي البطريركية ، مما أضطر لجنة الترشيح إلى إعادة الإجراءات . واستمرت القضية مرفوعة أمام القضاء بدعاوى متجددة إلى أن ظهرت نتيجة القرعة الهيكلية . وأمام الترحيب الشعبي الجارف لاختيار الله لقداسة البابا شنودة ، تراجع رافعوا القضية وطلبوا من المحكمة السماح بسحبها .

اللائحة التي أثمرت انتخاب اثنين من أعظم بطاركة التاريخ

لقد بينا أن الانتخابات البابوية سلكت تقاليد متعددة بعضها إنجيلي ورسولي وبعضها عكس ظروفا تاريخية وسياسية وكنسية . ورأينا كيف تطورت الأولويات مع الزمن وتفاعل كل منها بدرجات متفاوتة ، إيجابيا وسلبيا ، مع ضمير الكنيسة القبطية وحياتها عبر القرون .

وواضح أن إجماع ممثلي الأكليروس والشعب بصورة أو بأخرى هو العنصر الأساسي في التقاليد التي تكرر اتباعها أكثر من غيرها وأصبحت لها جذور عميقة في حياة الكنيسة . أما الطرق التي كان النفوذ فيها انفراديا أو لفئة في غيبة الجماعة فلم تتكرر إلا نادرا ونرجو ألا يسمح لها الله بالعودة .

ولقد حاولنا كشف مميزات اللائحة الحالية لانتخاب البطريرك وإيضاح أنها مبنية على روح الإنجيل والقدوة الرسولية وأفضل التقاليد القبطية التي أثبتت نجاحها على مدى ألفي عام ، كما أنها متوافقة مع أفضل النظم الديمقراطية في العالم ، ويحق للأقباط أن يفتخروا بها في الرب إذا ما قورنت بالنظم المتبعة في انتخاب بطاركة الكنائس الأخرى .

ومن الضروري أن نقبل أيضا أنه من طبيعة الأمور أنه لم ولن توجد لائحة مطلقة الكمال . لذلك حاولنا استكشاف مدى قرب اللائحة الحالية من الكمال .

هنا يسعدني أن أكرر ما قلته سابقا : كيف لا نعجب بلائحة أثمرت لنا على التوالي بطريركين عظيمين هما البابا كيرلس السادس والبابا شنوده الثالث .

أبانا صاحب القداسة والغبطة البابا شنودة الذي اختارته حكمة الله بالقرعة الهيكلية بعد انتخاب شعبي وصلوات حارة تنادي المراحم الإلهية: إننا نغبط أنفسنا بأبوتكم ، ونهنىء الكنيسة القبطية في أنحاء المسكونة برعايتكم ، ونبارك العالم بنور المسيح الذي يشع منكم .. هذه العاطفة نعبر بها لكم في عيد جلوسكم على كرسي مارمرقس وطول العام. فليحفظ الرب حياتكم . أمين .

طرق انتخاب باباوات الاسكندرية الـ ١١٧

م	الطريقة	العدد	التسلسل البابوى
١	الإجماع العام	٣٥	٢٠ . ٢٢ ، ٤٢ ، ٢٨ ، ٣٦ ، ٣٧ . ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ . ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥
٢	قسوس الإسكندرية	١٦	٤ ـ ١١ ، ١٣ ـ ١٨ ، ٢٥ ، ٣٤
٣	إلقاء قرعة	١٠	٣ ، ٤٨ ، ٧١ ، ١٠٢ – ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١٦ ، ١١٧
٤	البابا السابق	٧	٢ ، ٢١ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٨٨
٥	تدخل الحكام	٦	٢٧ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٤١ ، ٧٥ ، ٧٨
٦	الأراخنة منفردين	٥	٤٤ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ١٠١
٧	الأساقفة منفردين	٤	١٩ ، ٣٥ ، ٥٢ ، ١١٢
٨	أمر إلهي أو حلم	٤	١ ، ١٢ ، ٤٦ ، ٨٢
٩	المصادفة	٣	٤٢ ، ٦٣ ، ٦٤
١٠	الطريقة مجهولة	٢٧	